ذكريات شموع الروضة (13)

محمود الحماد

ورجل قلبه معلق بالمساجد

نحسبه والله حسيبه

صغيّر بن محمد الصغيّر

بسم الله الرحمن الرحيم

رحم الله الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود، ذلك الأمير الصالح الذي رحل عن هذه الدنيا، وبقيت له فيها شواهد خير تنطق بجميل أثره، وتدعو له وإن صمتت الألسن. بنى المساجد، وأقام الأوقاف، وامتدت يده إلى أبواب كثيرة من البر والإحسان، لعل كثيرًا منها خفي عن الناس، ولكنه لم يخفَ على الله الذي لا يضيع أجر المحسنين.

وكان من تلك المساجد جامعنا المبارك؛ فكان لنا نصيب من بره وإحسانه، ولم تكن عنايته رحمه الله ببيوت الله تقف عند بنائها وتشييدها، بل امتدت إلى رعايتها وصيانتها والعناية بها وبما يحتاج إليه المصلون فيها وقد حدثني ممن عمل معه رحمه الله أنه كان أحياناً يمر ببعض القرى فيشاهد كثرة السيارات عند بعض المساجد فيأمر بتوسعتها وكان لا يرفض طلبات المساجد وحفر الآبار والسقيا وقد قابلته رحمه الله في حج عام 1430 وكان حريصا على العبادة ومحبة العلماء وتطبيق السنن والسؤال عنها ومعه فريق يعمل بجد واجتهاد. ثم واصل ورثته من بعده هذه المسيرة المباركة، وأنشأوا مؤسسة الأمير

متعب بن عبد العزيز الأهلية، وبمتابعة مجلس أمنائها والقائمين عليها؛ فجزاهم الله عن والدهم، وعن بيوت الله وروادها، خير الجزاء.

ومن جميل الوفاء أن نذكر مع صاحب الخير أولئك الرجال الذين حملوا رسالته من بعده، وحفظوا أمانته، وسهروا على أوقافه ومساجده؛ فكم من خير يبدأه رجل ثم يقيض الله له من بعده رجالًا أمناء يحملونه ويحفظونه ويوسعون أثره، فيمضي صاحبه إلى ربه، ويبقى الخير جاريًا على أيدي من جاء بعده.

ومن هؤلاء الرجال الذين عرفتهم في هذا الطريق فقيدنا: الأستاذ محمود الحماد رحمه الله. والذي لا نزال نرى أثر فقده ونتذكره كل يوم عندما ندخل جامعنا ونعبر روضته ومحرابه..

عرفت محمودًا منذ سنوات، عندما عمل في مؤسسة الأمير متعب بن عبد العزيز الأهلية، وتولى جانبًا مهمًا من أعمال العناية بمساجد الأمير رحمه الله.

ولا أنسى أول لقاء جمعني به، رأيت أمامي رجلًا متواضعًا، بسيطًا في حضوره، حسن الاستماع، قريبًا ممن يحدثه، حريصًا على أن يعرف

احتياجات المسجد وتفاصيله. لم أشعر أنني أمام مسؤول يؤدي مهمة إدارية وينتظر أن تُرفع إليه الطلبات، وإنما أمام رجل يحمل همًّا، ويشعر بأمانة، ويرى أن خدمة المسجد قربة قبل أن تكون وظيفة، ومسؤولية قبل أن تكون بندًا في خطة عمل.

ومع الأيام عرفت محمودًا أكثر، وعرفت أن ذلك الانطباع الأول لم يكن عابرًا.

كان رحمه الله رجل ميدان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى؛ لا يحب كثرة الكلام بقدر ما يحب أن يرى العمل قد تم، ولا تقف به الإجراءات عن بلوغ الغاية، ولا تثنيه المسافات عن الوصول إلى المكان الذي يحتاج إلى حضوره. يسمع الملاحظة مهما بدت صغيرة، ويتابعها، ويسأل عنها، ويقف بنفسه على التفاصيل، وإذا وعد تابع، وإذا علم بحاجة سعى في قضائها، وإذا رأى خللًا لم يهدأ حتى يرى إصلاحه.

وكان من أجمل ما عرفته فيه طيبته؛ طبيعيًا لا تصنع فيه ولا تكلف. تجلس إليه فلا ترى حواجز المسؤولية أو الاستعلاء، وتحدثه في أمر من أمور المسجد فينصت إليك كأن هذا الأمر هو أهم أعماله، ثم لا

تنتهي المسألة بانتهاء اللقاء؛ بل تراه بعد ذلك يسأل ويتابع، وربما سبقك إلى الاتصال والسؤال عما تم.

وقد شهدت بنفسي شيئًا من حرصه على جامعنا ومتابعته لاحتياجاته، ورأيت كيف كان يتعامل مع المسجد لا باعتباره مبنى يحتاج إلى صيانة فحسب، بل بيتًا من بيوت الله ينبغي أن يهيأ لمن يركع فيه ويسجد ويقرأ القرآن ويذكر الله.

ولهذا لم يكن الفرش عنده مجرد فرش، ولا التكييف مجرد أجهزة، ولا الترميم والصيانة وتحسين المرافق أعمالًا شكلية؛ بل كان ينظر إلى ما وراء ذلك كله: إكرام المصلين، وتهيئة المكان للساجدين، وعمارة بيت من البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

وقد وصفه الدكتور سالم آل خازم، ممن عرفه وعمل معه عن قرب، وصفًا بليغًا حين تحدث عن همته في خدمة المساجد، وتنقله بينها، ومتابعته لها بنفسه، وما كان يبذله من أيامه ولياليه في مكة والأفلاج والطائف وجدة وغيرها، حتى إنه كان يصل من سفر ثم يمضي إلى مواقع بعيدة، ويتابع ويشرف، وربما عمل بيده أحيانًا.

وكان من أصدق ما قاله الدكتور سالم عنه: "محمود الحماد.. بطل المساجد ورجل الأثر"

وهي شهادة من عاش معه تفاصيل العمل، أما أنا فأشهد بما عرفته ورأيته منه: طيبةً وتواضعًا، وحرصًا، ووفاءً، وحسن تعامل، وتعظيمًا للأمانة، ومحبة ظاهرة لخدمة بيوت الله.

ثم جاءت خاتمة حياته، وكأنها فصل أخير من جنس الفصول التي سبقتها.

جاء موسم الحج، ومحمود لا يزال في ميدانه الذي أحبه، يعمل ويتابع ويخدم مساجد الأمير متعب بن عبد العزيز في مكة، ويقف على استعداداتها واحتياجاتها في تلك الأيام العظيمة التي تمتلئ فيها مكة بضيوف الرحمن.

لم يكن هناك في رحلة راحة، ولا في شأن خاص، وإنما كان في عمل ألفناه منه: خدمة المساجد والعناية بها في موسم الحج.

وفي أثناء ذلك وقع له حادث سير... حادث كتب الله أن يكون بداية رحلة الرحيل، بعد سنوات من الحركة والعمل والمتابعة... ثم شاء الله أن ينتقل محمود الحماد إلى ربه في أيام التشريق؛ تلك الأيام المباركة أفضل أيام الدنيا.. أيام حج وذكر وتكبير، متصلة بأعظم مواسم الطاعة.

ثم كانت له كرامة أخرى نرجو أن تكون من بشائر الخير له، ولا نزكي على الله أحدًا: أن صُلِّي عليه في المسجد الحرام.

وهنا يقف القلب طويلًا...رجل قضى سنوات يخدم المساجد، ثم كان من آخر أعماله خدمة المساجد في مكة في موسم الحج، ثم ينتقل إلى رحمة الله في أيام التشريق، ثم يحمل ليصلي عليه المسلمون في بيت الله الحرام.

ما بين أول الطريق وآخره معنى عجيب يلامس القلب... كان يخدم المساجد، فكان وداعه من أعظم المساجد.

وكان يسعى في راحة المصلين، فوقف المصلون يدعون له.

وكان يتابع بيوت الله في حياته، فكانت الصلاة عليه في بيت الله الحرام بعد مماته.

ولا نجزم لأحد عند الله بشيء، فالله أعلم بعباده، ولكن المؤمن يرجو للمحسن إحسانًا، ويستبشر بمثل هذه الموافقات، ويسأل الله أن يجعلها من أمارات رحمته وفضله.

وما أقسى أن يأتيك خبر وفاة رجل كنت تعرفه بالحركة والنشاط، والاتصال والمتابعة، والسفر من مكان إلى مكان، فإذا اسمه في لحظة يقترن بكلمتين تهزان القلب: رحمه الله.

هنا تظهر حقيقة الدنيا؛ فمهما كثرت المواعيد، وتعاظمت المشروعات، وامتدت الآمال، فإن بين الإنسان وبين الآخرة أجلًا إذا جاء لم يستأخر ساعة ولم يستقدم.

لكن عزاءنا في محمود أن الموت وإن قطع العمل، فإنه لا يقطع بالضرورة الأثر.

رحل محمود، ولكن بقيت مساجد كان له فيها جهد.

وكم من إنسان سيدخل مسجدًا خدمه محمود، فيصلي فيه ركعتين، أو يسجد لله سجدة، أو يقرأ آية، أو يذكر الله، أو يجد راحة في مكان كان لهذا الرجل يد في تهيئته، وهو لا يعرف محمودًا، ولا يدري من تابع ولا من سعى ولا من بذل، ولكن الله يعلم.. وهنا تكمن عظمة الأعمال التي يراد بها وجه الله؛ قد يغيب اسم صاحبها عن الناس، ويبقى عمله مكتوبًا عند رب الناس.. وما أجمل أن تنتهي رحلة الإنسان وقد ارتبط جانب من اسمه وعمره ببيوت الله.

إنها قصة خير امتدت حلقاتها: أمير صالح بنى وأوقف وفريق عمل يتابع، ورجال ميدان خدموا تلك المساجد، وكان من أبرزهم محمود الحماد رحمه الله.

وهكذا يمتد الخير من يد إلى يد، ومن جيل إلى جيل، وربما مضى أصحابه جميعًا وبقيت حسنة بدأها الأول، وحملها الثاني، وأخلص في خدمتها الثالث؛ فلا يعلم مقدار أجورهم إلا الله.

رحم الله الأمير متعب بن عبد العزيز، وجعل المساجد التي بناها والأوقاف التي أوقفها وما امتد منها من خير صدقة جارية في ميزان

حسناته، وجزى أبناءه خير الجزاء على برهم بأبيهم، وحفظهم لأثره، واستمرارهم في العناية بمساجده وأوقافه.

وجزى الله كل من عمل مع الأمير متعب في حياته، وكل من حمل أمانة هذا العمل من بعده، وكل يد امتدت إلى مسجد من مساجده ببناء أو إصلاح أو متابعة أو عناية.

ورحم الله محمود الحماد رحمة واسعة، وغفر له، ورفع درجته في المهديين، وأكرم نزله، ووسع مدخله، وأنار قبره، وجعل ما بذله من عمره ووقته وجهده في خدمة بيوت الله نورًا له يوم يلقى الله.

اللهم إن محمودًا قد أفضى إليك، وقد عرفناه محبًا للخير، حريصًا على بيوتك، ساعيًا في خدمتها؛ فاللهم اجعل كل مسجد خدمه شاهدًا له، وكل سجدة أعان على تهيئة مكانها في ميزان حسناته، وكل مصلٍّ انتفع بعمله أجرًا له، وكل قرآن تُلي في مسجد امتدت إليه عنايته نورًا ورحمةً تتتابع عليه في قبره.

اللهم كما كان من آخر عهده بالدنيا خدمة بيوتك في مكة، وكما شرفته بأن يصلى عليه في حرمك، فأكرم وفادته عليك، واجزه

بالإحسان إحسانًا، وبالبذل عفوًا وغفرانًا، واجمعه بمن يحب في جنات النعيم.

وكتبه: صغيّربن محمد الصغيّر

1448/3/28هـ